علاقة الطفل بوالديه

ملخّصة عن أوبرندورف[1]

حين يولد الطفل تتغير العلاقة بين الزوجين . فميلاده يخلق موقفاً سيكلوجياً جديداً : فهو يوثق بين الزوجين أواصر الزواج ، ولكنه يحرم كلا منهما من بعض ما يتلقاه من حب الآخر ورعايته . ويتوقف تحمل هذا الحرمان على ما يتميز به الزوجان من استعداد انفعالى للأبوة والأمومة . ففى العادة يكون الزوجان متأهبين للتضحية لطفلهما بكثير مما ينالان من حب . والأمر يختلف فى الحالات المرضية : فحين يكون الزوج ما يزال يسلك من زوجه لا شعوريا مسلك الإبن ، والزوجة تتمسك لا شعورياً بأن تبقى ابنة له ، يؤدى هذا الحرمان من حب الشريك إلى إفساد علاقة الطفل بوالديه . والمثال التالى تحليل لحالة مرضية أفسد فيها نقص نضوج الأم الانفعالى علاقتها بزوجها وابنها .

أما المريضة ففى السابعة والعشرين ، تحس بخفقان فى القلب وباختناق . روت أن طفلها ، وعمره ثلاثة سنين ، لا ينى يقرصها ويعضها كلما قبلها زوجها أمامه أو صرخ بها . وما إن برزت أسنانه فى منتصف السنة الثانية حتى كان يعضها بشراسة فى ساعديها وساقيها كلما أظهر زوجها بها اهتماماً . وكان هذا يحنق الوالد على ولده .

وفى حياة المريضة ما يفسر موقف الطفل الشاذ : فقد كانت هى الإبنة المفضلة لوالد طاغية يقسو على زوجه وأفراد أسرته ، فكانت قادرة على أن تنال منه كل ما تريد . تزوجت فى التاسعة عشرة شاباً كيّساً ضخم الجثة ولعت به إلى يوم زفافها . وإذ ذاك انقلب حبها مقتاً . فظنت أن زوجها تبدل أثناء الليل من شخص كريم

---

(١) C. P. Oberndorf : Child-parent relationship *in* Psychoanalysis To-day. New York : International University Press, 1945

يثير الإعجاب إلى خشن فظ تخجل من أن تبدو معه أمام الناس . وفى رحلة شهر العسل إلى فلوريدا ، أحست باختناق وغيثان شُخصا «بسعال العروس» . وهبطت حالها النفسية على الأثر ، فاتفقت وزوجها على الطلاق بعد سنة من زواجهما .

وبعد ستة أشهر تزوجت رجلاً هادىء المزاج موفق العيش يكبرها بقليل . فعاودها اضطراب تنفسها عقب حفل زواجها الثانى مباشرة ، مع أنها لم تشك منه إبان طلاقها وزواجها هذا .

ولد الطفل المذكور بعد سنة زواجها على التقريب ، وكانت المريضة تعانى أثناء الحمل آلام الغثيان والاختناق بلا انقطاع . وما أن ولد الطفل حتى لزمت الفراش سنتين ، دون أن تبدو عليها أعراض مرض جسمى . ثم تماثلت فترة وجيزة ، تلاها ظهور أعراض جسمية وعقلية على صورة أفكار وسواسية . فكان من البيّن أن المريضة ما تزال تحب زوجها الأول حبًّا جمًّا ، وتحنق ، لأسباب لا شعورية ، على رقة زوجها الثانى . كذلك كان من البين أنها استعاضت عن فشلها فى زواجها الثانى بارتباطها بطفلها على نحو شاذ ، حين بلغ عامه الثانى وبات قادراً على مبادلتها الحب . ومذ ذاك برحت الفراش .

ويمكن تفسير هجوم الطفل على أمه كلما صرخ بها زوجها : فقد نال الطفل من أمه حبًّا مفرطاً ؛ فهو لا يتحمل منافسة آخر . ولقد ارتبط فى ذهنه أن ارتفاع الصوت وغضب اللهجة يدلان على قرب العقوبة . كذلك أدرك أن أمه مذنبة مادامت تبيح للغير أن يصرخ بها . فهى من ثمت فى موقف يجيز العقوبة ويبررها . لذا يتحين الفرصة فيقتص منها لأنها لم تقصر حبها عليه وحده ؛ وهو يريد أن يتثبت ، بعقابه لها ، من أنها ستؤثره وحده بحبها فى كل حين .

ويواصل الطفل سوء سلوكه فى مثل هذا الموقف لأن أحد الوالدين يظاهره ويحثه . ففى الحالة التى نحللها ، كانت المريضة تشجع هجمات الطفل ، لأنها تذكرها بموقف زوجها الأول منها : فقد ردّتها بشغف وهى تضحك . إذ لو لم يكن سلوك الطفل ، رغم

قسوته ، يلد الأم ، لما سمحت باستمراره . والواقع أنها دعت الأب ، دون أن تشعر ، إلى القسوة عليها اقتداء بطفله ، إن كان يطمع فى نيل نصيب ابنه من حبها . وفوق هذا ، كان حبها لابنها الذى « لا يقاسمها فيه أحد » ، يحقق لها لا شعوريا رغبتها فى أن تكون رجلاً مسيطراً كأبيها . لهذا كان حبها لابنها حبًّا لنفسها بالأحرى .

ولكنها لمَّا كانت تعد نفسها مذنبة لأنها تمثل الرجل المعتدى والزوجة الكارهة ، كانت شراسة الطفل ترضى إحساسها اللاشعورى بالإثم . إذ لما كانت وثيقة التعلق بأبيها فقد قصرت عن النهوض بدورها كزوجة فى زيجتيها على السواء ، وجاء الطفل فأكد هذا القصور .

ومن ثم نرى أن هذه العلاقة الشاذة بين الأم وابنها وقد بدت بصورة إسراف أنانى فى التغاضى عن الطفل ، تقوم فى جوهرها على عجز الأم عن التوافق مع زوجها توافقاً ناضجاً وهذا العجز يرتد بدوره إلى استمرار تعلقها بأبيها تعلقاً مسرفاً ، أى يرجع إلى نقص نضوجها الانفعالى .

فلئن كان مولد الطفل يخلق موقفاً سيكلوجياً جديداً ، فان تطور الطفل يغير هذا الموقف . فلنتأثر إذن هذا التطور .

فحين ينمو ذكاء الطفل ، يتمكن من الربط بين رغبته فى موضوع ما و بين هذا الموضوع ، بين رغبته فى الأكل و بين الطعام مثلا . فيستطيع أن يظهر إرادته بما يأتى من أفعال ، كالمقاومة والقبض باليد وما إلى ذلك . فيخلق الطفل بغضبه وعناده أولى المشاكل التربوية : إذ يصعب على الوالدين أن يتوسطا الشدة واللين ، لأن الأطفال يتفاوتون فى حاجتهم إلى الحب واحتجاجهم على تقييد نشاطهم . ولكن لا ريب فى أن الوالدين الذين حرما الحب فى طفولتهما يميلان إلى الإسراف فى الشدة واللين . ولا ريب فى أن الأم التى لم تستقل عن والديها انفعالياً ، تميل إلى توثيق علاقة أطفالها بها ، لأن قربهم يزيد ثقتها بنفسها ، بعد أن زعزعها ضعفها كزوجة ، ويعوض أحيانا عن ميل عدائى يتجه إلى أطفالها أنفسهم .

و يفتقر الطفل إلى قدر كبير من حب والديه ، حتى تكتمل سعادته ونموه الانفعالى ولـكن يستحيل تعيين القدر الذى يفيده . ومع هذا ، فغالباً ما يحدسه الوالدان على أساس شعورهما بالرضى ، دون التفات إلى استجابات الطفل . فالطفل الذى ينضاف إلى الأسرة دون أن يكون مرغوبا فيه ، يغدو ضحية إهمال الوالدين : فيلبس ملابس إخوته ، ويلعب بلعبهم المحطمة ، وينال من العقوبة فوق ما يستحق . والطفل يستبين هـذا التفاوت بينه و بين إخوته ، فيدرك أنه فقد حب والديه . ويترك هذا الفقد آثاره فى سلوكه طوال حياته ؛ فقد يسخط على العالم ، وقد يصعب عليه أن يوفق بين حاجاته الناضجة ومقتضيات المجتمع ، وقد يواصل لاشعوريا السلوك الطفلى علّه يستعيد الحب الذى فقد . ولـكن عادة ما يتسم سلوك الوالدين من ابنهما البكر بالتساهل المسرف ، لاسيما إذا ظل بلا شريك . بيد أن الإفراط فى القسوة والتساهل يشوّه فكرة الطفل عن مركزه الحق فى الأسرة والمجتمع . فاذا امتنع توسطهما ، فإن عدم المبالاة أقل إفضاء إلى الشذوذ الانفعالى المرضى ، من التدليل الشاذ والبغض السافر . إذ لاريب فى أن الوالدين لايشعران نحو طفلين من أطفالهما بنفس المشاعر . وقد ينكر الوالدان هذا التفاوت فى توزيع حبهما . وقد يكون تحيزهما اللاشعورى هو ما يدفعهما إلى هذا الإنـكار : فقد يكشفان عن ميلهما إلى المحاباة بطرق أخفى مما يظنان ودون انتباه على الإطلاق .

وكما يخلق ميلاد الإبن البكر موقفاً سيكلوجياً جديداً ، كذلك يخلق كل طفل يأتى بعده مواقف جديدة . ذلك لأن الإخوة يؤثر بعضهم فى بعضهم تأثيراً انفعالياً يوجد فى حياتهم وحياة الأسرة مواقف تتغير باستمرار . فحين ينضم إلى الأسرة طفل جديد ، أياما كان جنسه ، يظهر فى الأسرة وسط جديد . وهذا الوسط يبدو بوضوح فى الحالات المرضية : فقد يركز أحد الإخوة اهتمامه حول أخ آخر . فتملك عليه هذه العلاقة حياته بأسرها . وقد يغار الأخ الأصغر من أخيه الأكبر . فتعين هذه الغيرة مدار تفكيره ونشاطه . وقد يتحد أخوان ضعيفان للثأر من أخ أقوى . وقد تحدث

بين أخ وأخت صورة صبيانية للزواج . فيتيسر لها أن يستبعدا طرفاً ثالثاً فإن الأحداث الجنسية التى تجرى بين الأخوة فى طفولتهم ؛ تؤثر بعمق فى تحديد ارتباطاتهم ومواقفهم فيما بعد . وهذا يؤدى بنا إلى تناول سلوك الطفل الجنسى من وجهة نظر علاقة الطفل بوالديه .

فالطفل يهتم بالموضوعات الجنسية قبل أن يتنبه الوالدان إلى اهتمامه . فهو يميل إلى استقاء معارفه الجنسية ممن يقاربونه سناً . فيتلقى عن الميلاد والنسل تفسيرات تشبع فضوله ، رغم بعدها عن الدقة والطفل يصدقها . لأنها تلوح له أصوب من تفسيرات الكبار . وهى تلوح له كذلك لأنه يجد فى تجربته السابقة دافعاً قوياً إلى الريبة فى صدق الكبار . وقد يحتكم الطفل إلى والديه فيما يتعلق بالموضوعات الجنسية . وقد يرفض حكمهما لأنه لا يطابق تصوراته السابقة .

أما متى يشترك الوالدان فى تربية أبنائها الجنسية ، فهذا ما يعينه الطفل حين يلمّح إلى الموضوعات الجنسية تلميحاً . أو حين يأتى فعلا جنسياً سافراً . ويحسن ترك الموضوع دون إثارة حتى ذلك الحين . وإلى أن يظهر الطفل بالمسائل الجنسية اهتماماً تلقائياً ، لا يكون متأهباً لفهم ما يلقى إليه من معلومات جنسية قد تصدمه .

ولا بد أن يتبين الأطفال ما بين عادات الأب والأم والإخوة والأخوات من اختلاف . وقد يثير الجنس مشكلة تربوية أخرى حين يبلغ الطفل عامه الثانى أو الثالث . فقد يعمد الوالدان إلى تعزية الطفلة بأنها ستملك عضواً كاخوتها . وإن اختلافها عن إخوتها ضئيل الأهمية ومن الخطأ أن يحاول الوالدين تغطية الفروق الجنسية التشريحية وقد تبينها الأطفال .

ولابد أيضاً أن يشترك الأطفال فى أحداث جنسية تعرض من حين إلى حين . وقد يكون من الأفضل لنموهم مواجهتها . فإن جذبت المواقف الجنسية انتباه الطفل ، وجب أن يواجهها الأطفال بوصفها أحداثاً طبيعية، دون أن يضطرب لها الوالدان . ولا ينبغى أن يعتبر الوالدان الجنس طبيعياً إلى حد التعرى أمام أطفالهم ، كما يدعوا بعض رجال التربية . فقد يثير التعرى فى الطفل اهتماماً جنسياً سابقاً لأوانه ؛ فضلاً عن أنه يناقض عادات المنزل فيبدو للطفل شاذاً غير طبيعى .

فلئن كان للتربية الجنسية أن تبدأ فى الطفولة ، فشرطها الأول أن يكون للطفل والدان عاقلان . ونحن نشير هنا ، دون تشاؤم ما ، إلى دور حقيقى يقع فيه الوالدن : فالطفل يعتمد على والديه فى تربيته الجنسية . ولوالديه أفكار عن الجنس . هذه الأفكار ترجع إلى عهد الطفولة . وهى لم تتغير ، دون أن يشعر الوالدان بهذا . فحين يبدآن تربية الطفل الجنسية ، يرجعان إلى أفكارهما الطفلية عن الجنس فيقع الوالدان تحت تأثير رغبة لا شعورية فى الإقتصاص لظلم لقياه فى طفولتهما ، فيفرضان على أبنائهما نفس النواهى الجنسية التى طالما بغضاها أطفالاً . فها يثأران من أطفالهما . وقد تتبدل صورة العقوبة ، وتظل طريقه توقيعها (نبرة الصوت والإشارة والتعبير الوجهى) مماثلة للطريقة التى عوقبا بها وهما طفلان . وهذا يحدث دون أن يشعر الوالدان بمسلكهما التحكمى .

وهذا هو الدور الذى يقع فيه الوالدان حين يتشبثان بسلوكهما الطفلى . ولكنه ليس مطلقاً لا يحتمل تعديلاً : فالزوجان ألفة جديدة . وفى هذا ما يكفى لخلق بيئة منزلية جديدة وجيلاً مختلفاً عن الجيل السابق . إذ هناك بعض أحوال تؤثر فى تغيير موقف الوالدين من أطفالهما . فثقافة الوالدين تؤثر فى تناولهما مشاكل أولادهما . وهذا التأثير عقلى بالضرورة يتمثل فى تقديرهما مشاكل أولادهما على أساس عقلى . وبهذا يتاح لهما أن يتخيرا المدرسة التى تعنى بالطفل وتثقيفه . فقد يدرك الوالد المحافظ أن المدرسة الصارمة لا تلائم بالضرورة حاجات الطفل . وقد يقتنع الوالد المتحرر أن ما يلائم الطفل هو مدرسة لا تؤكد فرديته بحيث توازن الاختلال فى نظام المنزل .

يتبين مما تقدم أن نمو الطفل الانفعالى يتأثر بعلاقته بوالديه تأثيراً قوياً متصلا . ولكن يجب قطع الروابط الانفعالية التى تربط الطفل بوالديه ، حتى لا يقف نمو الطفل الانفعالى . ويجب أيضاً قطعها بالتدريج ، وذلك بأن يشجع الوالدين إعتماد الطفل على نفسه ، وأن يفصلاه عنهما فى سن ملائمة . فإن ذلك كله يؤثر فى الطفل ووالديه تأثيراً حسناً .

ولقد رأينا أن الحب الأبوى ظاهرة معقدة تدخلها دوافع متميزة عدة . والتحليل النفسى يكشف فيه عناصر جنسية لا تنكر . وهى تظهر فى المواقف العائلية الشاذة على وجه التخصيص : يكشف عنها زواج أيم بامرأة تصغره بثلاثين أو أربعين عاماً ، وتظهر سافرة فى زنا الأب بابنته . هـذا ما يجعلنا نفهم مسلك الآباء الأنانيين الذين فشلوا فى زواجهم أو فقدوا شريكهم بالطلاق أو بالموت . فهم يبرعون فى توثيق الروابط الانفعالية الطفلية بينهـم و بين أطفالهم . و بذلك يمنعونهم من الاستقلال عنهـم و بذلك أيضاً يخلقون العلاقات العائلية المَرَضية . أما الأطفال الذين لم يتح لهم التخلص من ارتباطهم بآبائهم ، فيسخطون عليهم و يبغضونهم . وفى هذا الدليل على أن تأخر تطورهم الانفعالى لم يرضهم قط . و يختلف موقف الأطفال عن آبائهم حين تنحل بينهم الروابط النفسية والجسمية انحلالا طبيعياً موفقاً . فإذ ذاك قد تقوم بينهم صداقة أساسها النضوج الانفعالى .

ولا يمكن تقدير أهمية هذا التحول فى نمو شخصية الطفل . ذلك لأن الوالد الذى يرتبط بطفله ارتباطاً مرضياً ، والعكس بالعكس ، لن يبيح لنفسه توجيه بعض حبه لنظرائه . و يتضح هذا فى موقف الطفل حين يحتك بأطفال الجنس المقابل : فهو يرتد على نفسه المرة تلو المرة ، عاجزاً عن حب غـيره . لذلك فهو معرض لأن تنمو شخصيته بحيث لا ترضى إلا بنفسها و بكل ما يمر من خلالها . والطفل لا يقلل ركونه إلى والديه . لأن هذا الركون يلذه . فإن فقدهما ، وجد نفسه قد جاوز سن الطفولة . وما زال يتشبث بسلوكه الطفلى . لذا يعجز عن التوافق مع المجتمع ، يعجز عن التوافق مع من تخطى مراحل الاعتماد على الوالدين و كل نضوجه الانفعالى .

وجملة القول : أن اكتمال شخصية الطفل يتوقف على عدة عوامل . هى : (١) نضوج الوالدين نضوجاً انفعالياً (٢) توفيقهما فى توسط اللين والقسوة على الطفل (٣) إدراكهما أن سلوك الطفل الاجتماعى وموقفه منهما لا ينفصلان عن مشاكله الجنسية (٤) تشجيعهما فى الطفل استقلاله الانفعالى .